العلاقات العثمانية - المغربية خلال القرن السادس عشر

أحمد سالم سالم علي
مفتش آثار إسلامية
المجلس الأعلى للآثار
الإسكندرية – جمهورية مصر العربية

مقدمة

لعبت العلاقات المغربية العثمانية بعد دخول العثمانيين الشمال الأفريقي دورًا هامًا في مطلع التاريخ الحديث ، وبناءً على هذه العلاقات التي استمرت منذ ذلك الوقت تشكلت علاقات أخرى متشعبة بين دول المنطقتين الأوروبية والأفريقية مثل اسبانيا والبرتغال على الجانب الأوروبي ، وبعض ممالك غرب أفريقيا مثل غانا والسودان الغربي على الجانب الآخر ، وقد تأسست تلك العلاقات بين الدولة العثمانية والمغرب منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي مع بدء حركة المقاومة في الشمال الأفريقي ضد الأسبان والبرتغاليين.

إن علاقات المغرب بالدولة العثمانية تكتسي أهمية خاصة ، باعتبار أن المغرب ظل البلد الوحيد من بلدان العالم العربي الذي أفلت من الخضوع للإمبراطورية العثمانية ، كما أن المغرب كان يمثل مسرحًا للصراع بين المسيحية ممثلة في الدول الأوروبية والإسلام ممثلاً في دولة الخلافة العثمانية.[1] ولعل هذا الصراع الذي ظل قائمًا بين البلدين كان صراعًا على النفوذ وأحقية هذا النفوذ في المقام الأول ، وهذا ما لم يحدث بين الدولة العثمانية وأي بلد آخر من بلدان العالم العربي سوى المغرب التي نازعت دولة الخلافة في السلطة الروحية التي دانت لها كافة أقطار العالم الإسلامي السني.

فمنذ تولى الأشراف السعديين السلطة في المغرب وجدوا أنهم أحق بخلافة المسلمين وبالفعل أتخذ بعض الحكام السعديين لقب الخليفة ، وكان هذا استنادا لنسبهم الشريف الذي يجعلهم أحق بالخلافة من الترك العجم ولذلك لم يعترفوا بالخلافة العثمانية ولم يدينوا لها ، وعلى النقيض من ذلك أحس العثمانيون أنهم أولى وأحق بشرف خلافة المسلمين ، فقد اعترف بهم شريف مكة نفسه وأعطاهم مفاتيح الكعبة وتلقب السلطان العثماني بخادم الحرمين الشريفين ، إلى جانب أن الدولة العثمانية كانت في ذلك الزمان أقوى الدول الإسلامية قاطبة بل أصبحت إمبراطورية ضمت بين جنباتها معظم أراضي الدولة الإسلامية الأولى بل وألحقت بها أقطار جديدة نشرت فيها الدين الإسلامي مثل شرق أوروبا ، هذا إلى جانب أنها تحمل على عاتقها الدفاع عن الإسلام والمسلمين في جميع أنحاء العالم .

وانطلاقًا من هذا التناقض قام الصراع بين الطرفين العثماني والمغربي الذي كان في بعض الأحيان صراعا عسكريا مباشرا وفي البعض الآخر صراعا متخفيا خلف قناع المهادنة. لقد كان حلم العثمانيين بعد إخضاعهم شمال إفريقيا لحكمهم في عهد السلطان سليمان القانوني هو إخضاع المغرب الأقصى أو عقد تحالف إسلامي من شأنه أن يعينهم على حربهم ضد الصليبيين وليتسنى لهم طرد الصليبيين نهائيا من أراضي المغرب بل وإعادة الأندلس لحظيرة المسلمين ، ولكن رغم ذلك باءت كل المجهودات في ضم المغرب بالفشل نتيجة لعقد الحكام المغاربة التحالف مع القوى الصليبية التي لها مصالح في المغرب مثل اسبانيا والبرتغال لضمان بقائم بمنأى عن التدخل العثماني هذا إلى جانب انشغال الدولة العثمانية في كثير من الأحيان بحروبها الأخرى المتعددة.

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
أحمد سالم علي ، العلاقات العثمانية المغربية خلال القرن السادس عشر .- دورية كان التاريخية.- العدد الثالث عشر ؛ سبتمبر ٢٠١١. ص ٤٩ – ٥٤.
(www.historicalkan.co.nr)

دورية إلكترونية محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

الوجود البرتغالي في المغرب

وظهور الأشراف السعديين

كانت السلطة الحاكمة في المغرب الأقصى مع بداية التدخل العثماني الواسع النطاق في الشمال الأفريقي في القرن السادس عشر هي سلطة بني وطاس البقية الباقية من بني مرين والتي قد آلت إلى درجة من كبيرة من الضعف ، فكانت بذلك من الأسباب المباشرة لنجاح الغزو البرتغالي للمغرب الأقصى في القرن الخامس عشر وبدايات السادس عشر.

لقد مهد جيان الثاني الذي حكم البرتغال بين عامي (١٤٨١-١٤٩١م) لبسط النفوذ البرتغالي على مينائي آسفى وأزمور ، فقد عقد مع شيوخ القبائل في المناطق المحيطة بالميناءين معاهدات كفلت بعض الامتيازات للبرتغاليين حتى استطاع البرتغاليون في عهد الملك عمنوائيل الأول الذي اعتلى العرش عام ١٤٩١م من بسط نفوذهم على كل من آسفى وأزمور الواقعتين تحت الحكم الوطاسي الضعيف بواسطة الدسائس والاتفاقيات مع مشايخ القبائل في هاتين المنطقتين. ولقد عانى المواطنون خاصة في آسفى من تدخل النفوذ الأجنبي حيث أذاقهم البرتغاليون العذاب ألوانا ، وأهانوا المعابد الدينية ، وجعلوا المسجد الكبير محلاً للقاذورات ، وعبثوا بالمحارم ، واستباحوا التجارة في الأحرام فباعوا أهلها جهارًا ، وسفكوا الدماء ، ونهبوا الأموال ، وهدموا الدور.[٢] ولقد تم لهم السيطرة الكاملة على مدينة آسفى عام ١٥٠٨م وأزمور عام ١٥١٣م ، وبعد سيطرتهم الكاملة على المدينتين وبعض المدن الساحلية الأخرى الهامة مثل: ماسة ومازكان ومواداكور ، تطلعوا للسيطرة على مدينة مراكش نفسها ولكن حملتهم باءت بالفشل ، كما باءت بالفشل أيضًا حملتهم لاحتلال موقع المعمورة المنفذ البحري لمدينة فاس في نفس السنة.

كما كانت أنظار البرتغاليون متجهه إلى مدينة أكادير ، فقد كان لهذا الميناء أهمية خاصة باعتباره المنفذ لحاصلات منطقة السوس ومنتجاتها الوفيرة. وقد أدرك البرتغاليون هذه الأهمية منذ السنوات الأولى للكشوف الجغرافية فعمدوا منذ عام ١٤٤٧م لربط شيوخ القبائل في المناطق المجاورة باتفاقيات ، ومنذ أوائل القرن السادس عشر استطاع المغامر البرتغالي جو لوبيز (joao lopes sequira) عقد اتفاقيات تخول له وضع يديه على منطقة أو أكثر من الساحل المغربي على المحيط الأطلسي ، ولكنه تنازل للحكومة البرتغالية عن كافة حقوقه عام ١٥١٣م حيث حلت الحكومة محله وأصبحت المنطقة تحت إشرافها.[٣]

أما عن مدينة ماسة ؛ فقد أشارت الوثائق البرتغالية عن كيفية سيطرة البرتغال على هذه المنطقة ، حيث أعلن ثلاثة شيوخ قبائل في ماسة ولاءهم للملك البرتغالي ، وتعهدوا بتيسير بناء قلعة برتغالية في المكان الذي تراه البرتغال مناسبًا. ومن الوثائق يتضح لنا أنه حتى عام ١٥١٠م لم تكن سلطة البرتغال الرسمية قد بسطت على هذه المنطقة ، لكن البرتغال كانت تعتمد على ارتباطها ببعض شيوخ القبائل ، لكن منذ عام ١٥١٣م قد حلت الحكمة البرتغالية في إدارة هذه المنطقة مكان المغامر البرتغالي سالف الذكر.[٤]

حاولت الحكومة البرتغالية بعد ذلك بسط نفوذها على العاصمة مراكش ، ولكنهم فشلوا في ذلك واضطروا للانسحاب ، وكان لهذا الانتصار دورًا كبيرًا في تراجع النفوذ البرتغالي في المغرب بعد ذلك ، وقد شجع هذا الانتصار المغاربة على معاودة الهجوم على القوات البرتغالية في الثغور المغربية الأخرى ، وقد تضاعف فشل البرتغاليين في الوصول إلى مراكش بعد عجزهم عن توسيع نفوذهم في حوض نهر سبو بهدف فتح الطريق نحو فاس ، وبالرغم ما كانت تعانيه الدولة الوطاسية من ضعف في أيامها الأخيرة ، إلا أنها استطاعت بمعاونة الآلاف من الشباب المغربي المتحمس الدفاع عن مركز من أهم مراكز حضارته. ويعتبر جمهرة الكتاب البرتغاليين أن هذه الأحداث كانت نذيرًا بانحسار موجة التوسع البرتغالي في المغرب وينظرون لعصر عمانوئيل الأول على أنه قمة ما وصل إليه النفوذ البرتغالي في المغرب ، بينما يعتبرون عصر جيان الثالث (١٥٢١- ١٥٥٧م) عصر تصفية هذا النفوذ.[٥]

كان ضعف السلطة الوطاسية في فاس سببًا مباشرًا في ظهور الأشراف السعديين[٦] كمجاهدين لهم شعبية جارفة في المغرب بسبب نشاطهم الملحوظ ضد الاستعمار البرتغالي للساحل المغربي على المحيط الأطلسي ، وكانت هذه القوة الجديدة قوة برية على عكس قوة رؤساء البحر التي سيطرت على الجزائر ، ولقد نجح السعديون في تخليص كثير من الموانئ المغربية من أيدي الأجانب ، حيث ظهروا في بادئ الأمر في إقليم السوس وهو الإقليم الذي حاولت كل من البرتغال وأسبانيا احتلال مخارجه على المحيط الأطلسي. ولقد تحولت هذه القيادة الجديدة إلى دولة ثابتة مدعمة التف حولها الأهالي لكي تقوم بمهمتها تجاه الاستعمار ، وقد تمكنت هذه الدولة الناشئة من أن توحد الأهالي في جنوب المغرب وتحارب بهم قوات الاستعمار ، واستطاعت مد سلطتها على القبائل المحيطة ، وأصبحت أمل المغرب الأقصى في الاحتفاظ باستقلاله والوصول إلى وحدته.[٧]

وإذا كان الأشراف السعديون قد وصلوا إلى الحكم في أول الأمر كمحررين للمغرب الأقصى من الأخطار المحدقة به من الاستعمار ، فما لبثوا أن تحولوا بسرعة إلى قيادة إقطاعية ، تعتز بحسبها ونسبيها وتعتمد على الطبقات والحقوق والامتيازات ، وكان هذا نتيجة لنمو القيادة من ناحية ، وطبيعة تكوينها من ناحية أخرى ، وطبيعة القوى المجاورة لها وعلاقتها بها ، وتهديدها لامتيازاتها أو ترابط مصالحها معها.[٨]

ومع نمو سلطة قيادة الأشراف السعديين واتجاهها صوب الخارج اضطرت إلى أن تصطدم هناك بقوة الأجانب الموجودة في الموانئ ، ولكنها وصلت في نفس الوقت إلى سواحل كان أبناؤها يشاركون إخوانهم في الجزائر في عملية الجهاد البحري ضد المسيحيين ، وشعرت القيادة السعدية أن هذا التكامل بين رجال البحر من مغاربة وجزائريين يمثل خطرًا عليها ، وكان ذلك سببًا أساسيًا في اصطدامات وقعت بين الأشراف السعديين وبين كل من رجال البحر المغاربة والجزائريين ، وقد ظهرت هذه الاصطدامات في شكل محاولات متتالية لإخضاع الموانئ المغربية لسلطة الدولة السعدية ومحاولات أخرى لإبعاد نفوذ الجزائريين والعثمانيين عن شمال إفريقيا.[٩]

الدور العثماني في الصراع

بين بني وطاس والسعديين

على صعيد آخر استطاع الأتراك العثمانيون عام ١٥٤٨م القضاء على سلطة بني زيان نهائيًا في عاصمتهم تلمسان ، حيث أمسكوا بزمام الأمور بقوة وأقاموا على إمارتها الأمير حسن ووضعوا بها حامية من

دورية إلكترونية محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449

مائتي تركي.[١٠] وهكذا أصبح العثمانيون على أعتاب المغرب الأقصى وبدؤوا في التطلع إلى إخضاع سلطنة فاس الوطاسية تمهيدًا لإخضاع باقي المغرب والشمال الأفريقي تحت حكمهم ، وقد تابع العثمانيون من منتصف القرن السادس عشر زحفهم غربي تلمسان وضموا إليها وجدة في شرقي المغرب ، وذهبت أساطيلهم ترسو على السواحل المغربية الشمالية وجددوا من تدخلاتهم السياسية والعسكرية في أحداث فاس ومراكش.[١١]

ولقد تولى قيادة السعديين في بادئ الأمر رجل من الأشراف لقب بمحمد القائم بأمر الله ، وكان ذلك سنة ١٥٠٩م وبعد وفاته سنة ١٥١٧م انتقلت السلطة إلى ولديه محمد الشيخ وأحمد الأعرج ، ولقد نجحا هذان الأميران من تحرير آسفي وأزمور في نهاية الثلاثينيات وبداية الأربعينيات من القرن السادس عشر. ولقد عرض الوطاسيين على محمد الشيخ المهدي تولي أمر مراكش باسمهم وهم يحكمون فاس ، ولكنه رفض هذا العرض إذ أنه كان يطمع في توحيد كل المغرب تحت سلطته ، ودخل بذلك في نزاع مع أخيه أحمد الأعرج ومع الوطاسيين في نفس الوقت ، وانتهى هذا الصراع بدخوله مدينة فاس سنة ١٥٤٩م وأصبح بذلك المؤسس الفعلي للدولة السعدية في المغرب.[١٢]

والجدير بالذكر ؛ أنه قبل دخول السعديين إلى مدين فاس وانتهاء حكم الوطاسيين بها ، لم يجد الوطاسيين بدًا من التزلف للأتراك والاحتماء بهم بالدعاء للخليفة العثماني على المنابر وضرب السكة باسمه ، لكن السعديين لم يمهلوهم واقتحم عليهم محمد الشيخ مدينة فاس وقبض على الوطاسيين باستثناء ابي حسون الذي استطاع الفرار إلى الجزائر وحاكمها يومئذ حسن باشا بن خير الدين بربروسا.[١٣]

وجد الأتراك العثمانيون أنفسهم أمام أحد خيارين ، إما أن يعيدوا الحكم الوطاسي إلى المغرب لضمان عودة نفوذهم على هذه المناطق والذي سيمهد لهم الطريق لإخضاع باقي المغرب ، وإما أن يرضوا بالأمر الواقع ويبدؤوا في التعامل مع سلطة السعديين الجديدة ، وفي هذه الحالة سيكون تدخلهم أصعب من ذي قبل خاصةً مع الشعبية التي يتمتع بها الأشراف السعديين لوقوفهم أمام الاحتلال البرتغالي. وهكذا قرر العثمانيون الاستعداد للدخول إلى المغرب وإعادة أبو حسون إلى عرشه ، وقد أقضت هذه الأخبار مضجع محمد الشيخ فصرف نظره عما كان بصدده من تمهيد الشمال.

وبدأت القوات العثمانية في التحرك تجاه المغرب لإعادة أبي حسون ، فحدثت صدامات كبيرة بين قوات محمد الشيخ والقوات العثمانية قرب حجر باديس ولحقت الهزيمة بالقوات السعدية ، فواصل العثمانيون زحفهم نحو الداخل واستطاعوا دخول مدينة تازة بعد معارك متواصلة مع السعديين ، وبعد ذلك استطاع العثمانيون دخول فاس ومعهم أبو حسون فى عام ١٥٥٤م[١٤] ، وخطب على منابرها للسلطان العثماني من جديد وهكذا ظهر وكأن المغرب قد توحدت مع باقي ولايات الشمال الأفريقي تحت الراية العثمانية. فزعت اسبانيا والبرتغال لرؤية بداية السيطرة العثمانية على بعض الموانئ المغربية خصوصًا القريبة من مراكزهم الاستعمارية ، مما سيمهد بلا شك لمحاولاتهم لاسترداد الأندلس ، وقد بعث الملك البرتغالي جيان الثالث إلى الإمبراطور شارلكان رسالة يحثه فيها على التدخل السريع لمواجهة العثمانيين قبل توطيد حكمهم في المغرب ، مما سيكون له عظيم الأثر على كل من النفوذين الاسبانى والبرتغالي.[١٥]

لم يمكث العثمانيون أكثر من أربعة أشهر ضمنوا فيها استتباب الأمر لأبى حسون ، الذي حاول بعد خروج العثمانيين الوصول إلى مراكش للقضاء على محمد الشيخ وتوحيد باقي المغرب تحت السيادة العثمانية ، واستطاع في بادئ الأمر أن ينزل بالسعديين هزيمة كبيرة ، إلا أن محمد الشيخ استطاع بحيلة ماكرة أن يقتل أبا حسون.[١٦]

هكذا ؛ مات أبو حسون بعد تسعة أشهر تقريبًا من عودته إلى فاس ، وضاعت بموته فرصة كبيرة للعثمانيين لإعلان السيادة على المغرب وتوحيده مع بقية الإمارات العثمانية في الشمال الأفريقي. وهكذا انتهت سلطة بني وطاس إلى الأبد واستطاع السعديون إتمام السيطرة على المغرب الأقصى بالقوة ، مما سيؤدي بعد ذلك إلى التنافر بين القوة السعدية الناشئة وبين العثمانيين الذين أملوا في تكوين اتحاد إسلامي كبير ومجاهد يواجه الأخطار الخارجية ، ويحاول إعادة الأندلس للمسلمين ، ولكن محمد الشيخ رفض عروض العثمانيين بل ورفض الاعتراف بالخلافة العثمانية ، وزاد على ذلك تقربه للأسبان بغية التحالف معهم ضد العثمانيين ، وهذا ما أدهش الأسبان الذين توقعوا ذلك التحالف الإسلامي الجهادي ضدهم وضد الوجود البرتغالي في البلاد.

النزاع على السلطة في المغرب

ودور العثمانيين في معركة وادي المخازن

بعد استتباب السلطة لمحمد الشيخ في المغرب الأقصى وبعد قضائه نهائيًا على سلطة الوطاسيين - كما سبق الذكر - حاول السلطان العثماني سليمان القانوني إقناعه بعقد تحالف عثماني مغربي من شانه أن يقف أمام الأخطار الخارجية ، ولكن محمد الشيخ رفض تمامًا بل لم يعترف بالخلافة العثمانية العجمية واعتز بحسبه ونسبه وبأنه أمير المؤمنين وأنه لا يمكن لأحد أن يقدم عليه سلطانًا تركيًا أو أعجميًا ، ولم يقف الأمر إلى هذا الحد ، بل إن محمد الشيخ المهدي حاول أن يزيد من سلطته في المغرب الكبير حتى إقليم وجدة ، وحتى مدينة تلمسان التي كانت همزة الوصل بين المغرب الأقصى والجزائر ، وكانت عاملاً مهمًا في توطيد الحكم السعدى في المغرب والحد من التدخل العثماني.

وفعلاً استطاع محمد الشيخ احتلال تلمسان وضمها إلى المغرب ، وكان من المنتظر أن تستأنف الحملة رحلتها نحو مزيد من التوسع ، وقد تسبب سقوط تلمسان في أيدي محمد الشيخ المهدي في إزعاج باشا الجزائر الذي سارع إلى جمع قواته ، حيث دارت عدة معارك فاصلة في تلمسان ذاتها بين العثمانيين والسعديين انتهت بهزيمة السعديين هزيمة ساحقة وقد تتبع الأتراك فلول السعديين حتى نهر ملوية.[١٧] وبعد الهزيمة القاسية التي مُني بها المغاربة أدرك السلطان العثماني سليمان القانوني ما ستخلفه مثل هذه التدخلات من أثر قي نفوس المغاربة ، فقد كان باستطاعته بعد هذه الهزيمة القاسية أن يأمر الجيش بإتمام عمله وإخضاع المغرب كاملاً ، ولكنه أدرك أن جهاده في الشمال الأفريقي كان وسيظل ضد الصليبيين الذين أرادوا إخضاع هذه البلاد وليس ضد إخوانه من المسلمين المجاهدين.

وهكذا ؛ نجده يبعث برسالة إلى السلطان محمد الشيخ يخبره فيها بعزل حسن باشا الذي لم يحسن الجوار ، ويحيطه علمًا بأنه عين صالح باشا واليًا على الجزائر والذي يتمنى أن تكون علاقته به حسنة ، ولم يكتف السلطان سليمان ببعث الرسائل ولكنه تبع ذلك بإرسال سفارة

هامة إلى مراكش برئاسة العلامة الصالح أبي عبد الله محمد بن على الخروبي الطرابلسي القارقاريشي نزيل الجزائر يقصد المهادنة بين السلطانين. وتذكر بعض المصادر المغربية أن السفير جاء ليقترح على العاهل المغربي عقد سلام بين البلدين ، ولكنه طلب من ملك المغرب أن يعترف بالسيادة العثمانية ، وأن ينقش اسم السلطان العثماني على قطع العملة المغربية على نحو ما كان في أواخر العهد الوطاسي ، وتروي المصادر المغربية أن محمد الشيخ قال للخروبي: (سلم على سلطانك أمير القوارب وقل له أن سلطان المغرب لابد أن ينازلك على محمل مصر ويكون قتاله معك عليه إن شاء الله).[١٨]

وكان نتيجة هذا الفشل في المساعي التركية للتوصل إلى الصلح والمهادنة مع محمد الشيخ شريطة أن يعترف بالخلافة العثمانية أن ازداد التقارب بين الأشراف السعديين والأسبان ، فقد كان الأسبان يترقبون التعاون التام بين محمد الشيخ السعدي والأتراك العثمانيون ويهيئون أنفسهم لهذا الظرف الجديد خاصة أنهم يعلمون أن هذا التقارب سيكون له تأثير كبير على القضيتين الأساسيتين: الثغور المحتلة والقضية المورسكية.[١٩]

لكن محمد الشيخ أبدى في علاقته مع العثمانيين ثم تقاربه مع الأسبان ما لم يكن في الحسبان ، فقد سعى محمد الشيخ للتقرب من الأسبان ، بل وطلب مساعدتهم لمواجهة العثمانيين. وقد أرسل حاكم وهران فعلاً إلى فاس وفدًا يتكون من ثلاثة أشخاص جاؤوا للاتفاق مع محمد الشيخ حول تهيئ حملة مشتركة اسبانية مغربية ضد الأتراك ، وقام العثمانيون بأول رد فعلاً نتيجة التقارب السعدي الأسباني ، فشددوا الحصار على وهران باعتبار أن حاكمها الاسباني كان أداة الاتصال بين فاس ومدريد ، إلا أن جميع الجهود فشلت نتيجة النجدات المتواصلة التي كانت تبعثها اسبانيا للمدينة المحاصرة.[٢٠]

وعلى أثر كل هذا قرر العثمانيون التخلص من محمد الشيخ بأية وسيلة ، فقد تجاوزت خيانته في وجهة نظرهم الحد الذي يمكن السكوت عنه ، فدبروا مؤامرة للتخلص منه فأرسل السلطان العثماني جماعة من الجند (أثنى عشر جنديًا) دخلوا في خدمة محمد الشيخ بحجة أنهم هاربون من الجيش التركي حتى اطمأن إليهم وانتهى الأمر بقتله في عام ١٥٥٧م. وبعد ذلك اتجه حسن باشا إلى الأسبان الذين أعدوا العدة لمهاجمة مستغانم حيث انتهت المعركة بهزيمة الأسبان هزيمة ساحقة.[٢١] وبعد مقتل محمد الشيخ بويع ابنه محمد عبد الله الغالب بالله بالسلطة في فاس ثم واتته بيعة مراكش ، وكان عليه أن يواجه أطماع العثمانيين بالإضافة إلى قتال المستعمرين البرتغال ، وفي عام ١٥٥٧م تحرك حسن بن خير الدين باشا من الجزائر في جيش كثيف وصل إلى قرب عمالة فارس حيث التقى بجيش عبد الله الغالب وانتهت المعركة بهزيمة العثمانيين وفرار حسن باشا إلى باديس ، وعلى أثر هذا ازداد تقارب المغاربة مع الأسبان بل ومن دول أوروبية أخرى.

لقد انتهج عبد الله نفس سياسة والده حيث التجأ إلى الأسبان تحت ضغط التهديد العثماني للمغرب ، إذ كانت علاقته مع الأسبان تشكل عامل توازن فقد كان يريد الحفاظ على كيان مستقل للمغرب بأقل قدر ممكن من الخسارة: إما التنازل عن نقاط معينة للأسبان وغيرهم ، أو احتواء المغرب بأكمله من طرف الأتراك[٢٢] ، ولقد قامت عدة ثورات في المغرب مناهضة لحكم عبد الله الغالب ، ولكنه استطاع القضاء عليها تمامًا حتى أنه قتل ثلاثة من إخوته لرفضهم البيعة بولاية العهد لأبنه المتوكل ، مما جعل عميه عبد الملك وأحمد المنصور يفران خوفًا من القتل.

ولما توفى عبد الله الغالب بالله عام ١٥٧٤م فبويع ابنه السلطان أبو عبد الله المتوكل على الله ، لكن لم تدم مدة حكمه طويلاً فقد نجح عمه أبو مروان عبد الملك بمعاونة الأتراك في أن ينتزع منه الحكم. أما عن الظروف التي انتقل فيها الحكم من المتوكل إلى عمه أبي مروان عبد الملك فلها أهميتها فيما يتعلق بتاريخ المغرب الأقصى وعلاقاته سواء مع الأتراك العثمانيين ، أو مع المستعمرين البرتغال والأسبان ، فقد لجأ عبد الملك وأخوه أحمد المنصور إلى تلمسان حيث أقاما عند واليها حسن باشا خشية بطش المتوكل بهما ، فقد عُرف عنه ميله إلى سفك الدماء ، وكانا على صلة بأتباعهما بالمغرب الناقمين على المتوكل سلوكه ليهيئوا له الجو المناسب.

وقصد عبد الملك وأحمد النصور بعد ذلك الجزائر ومنها إلى القسطنطينية للاستنجاد بالسلطان العثماني ليعينهما على الاستحواذ على السلطة بالمغرب.[٢٣] ولم تكن هذه أولى علاقات عبد الملك مع العثمانيين فقد كان له معهم علاقات خاصة منذ لجوئه وأمه وأخوته إليهم من جراء طغيان عبد الله الغالب وانخراطه بين صفوف المحاربين العثمانيين إلى اشتراكه في معركة حلق الوادي بين العثمانيين والأسبان التي بمقتضاها دخلت تونس نهائيا في الإمبراطورية العثمانية.[٢٤]

وقد انتهز العثمانيون تلك الفرصة الذهبية لفرض سيطرتهم على المغرب الأقصى ولو بشكل اسمي في البداية كما حدث من قبل في أواخر عهد الوطاسيين ، وليس من المستبعد كما يرى البعض بعد دخول عبد الملك فاس في صحبة القوات التركية ، أن تكون هذه الحاضرة قد كررت ما سبق وأن شهدته أيام دخول أبو حسون الوطاسي سنة ١٥٥٤م من ترديد الدعاء للسلطان العثماني ، وأن مساجد مراكش أيضًا قد شهدت شيئًا من هذا القبيل ، وقد كشفت الوثائق الأسبانية عن وجود حربي كبير للأتراك في كثير من واقع المغرب في هذه المرحلة يمكن أن يساند النفوذ السياسي العثماني ويعلن عن مظاهر هذا النفوذ بما يخدم الغزو المرحلي.[٢٥]

ولقد أمد السلطان العثماني عبد الملك - كما تقول المصادر- بقوة كبيرة بلغت نحوًا من خمسة آلاف أو ستة آلاف فارس عربي وعشرين مدفعًا[٢٦] سار بها عبد الملك وأخوه المنصور حتى أحواز فاس والتقيا بجيش ابن أخيهم المتوكل وانتصرا عليه ، حيث لاذ المتوكل بالفرار ودخل عبد الملك فاس عام ١٥٧٦م وبايعه أهلها ودخل مراكش في نفس السنة وبايعه أهلها أيضًا وبقى هو في مراكش واستخلف أخاه أحمد المنصور على فاس وأعمالها.[٢٧]

أما عبد الله المتوكل فقد أعاد الكرة على مراكش حيث وقعت معركة خندق الريحان عام ١٥٧٦م ، وفي هذه المعركة التي دارت رحاها مدة ثلاثة أيام واجه عبد الملك تجمعًا كبيرًا من أنصار المتوكل حيث انتصر انتصاره الساحق بقوة محدودة ، ولكن لها خبرات وأساليب التنظيم العسكري العثماني والتي بفضلها لم يفقد عبد الملك في المعركة غير القليل من رجاله.[٢٨] وبعد هذه الواقعة فر المتوكل إلى طنجة ومنها إلى ملك الأسبان ، فاستنجد به ضد عمه عبد الملك فلم ينجده ، فتوجه إلى البرتغال ليستنجد بملكها "دون سبستيان".[٢٩]

ولقد انتهز "دون سبستيان" ملك البرتغال الشاب هذه الفرصة لإعادة نفوذه من جديد على الموانئ الغربية للمغرب ، إلى جانب الحد

من ازدياد نفوذ الأتراك الذي يستشري في المغرب ويكاد أن يسيطر عليه ، فقد اعتقد دون خوان سفير اسبانيا في لشبونة أن مجيء الأتراك بقوة كبيرة في صحبة عبد الملك إلى المغرب ليس من قبيل مساعدة عبد الملك فحسب ، ولكن من أجل الحصول لأنفسهم على ملكية بالموانئ الغربية ، واتجه بظنه في ذات الوقت إلى أن عبد الملك لم يمنحهم وعدًا بذلك ولكن ربما عرضوا عليه مساعدته في تحرير طنجة في مقابل أن يمتلكوا موانئ - مثل ميناء العرائش - تسمح برسو الأسطول التركي في مياهها بالشتاء ، ومن منطلق هذا الاعتقاد طلب ملك البرتغال من فيليب الثاني ملك اسبانيا مساعدته على تفادي هذا الخطر بالاستيلاء على العرائش لما في هذه الخطوة من مزايا تكفل مصالح المملكتين معًا.(٣٠)

لكن لم تشارك أسبانيا رسميًا في هذه الحملة ، وإن كان ملك اسبانيا قد وعد سبستيان بإمداده بسبعة آلاف جندي من الأسبان والإيطاليين ومن الفاتيكان والألمان ، وحين بلغ عبد الملك أخبار استعدادات الملك البرتغالي لهذه المعركة أرسل له يثنيه عنها ويبصره بعواقبها ، وفي نفس الوقت كان أحمد المنصور يعبئ الجيش فجمع تحت رايته نحو مائة ألف مقاتل ، بينما قُدر عدد الجنود البرتغاليين بنحو ١٢٥ ألف ، كما اشترك في المعركة عدد كبير من السفن الحربية.

وفي سنة ١٥٧٨م توجه الجيش البرتغالي من لشبونة إلى طنجة ، ثم وضعوا أيديهم على أصيلا بمعاونة المتوكل على الله الخائن لبلاه ، وتابع جيش سبستيان سيره حتى وصل إلى الضفة اليسرى لوادي المخازن ووصل الجيش المغربي قبالة الجيش الغازي في هذا المكان حيث وقعت الواقعة الحاسمة بين الجيشين سنة ١٥٧٨م ، وقد هُزم فيها جيش عبد الملك جيش سبستيان وحليفه المتوكل هزيمة ساحقة وكان من بين القتلى ملك البرتغال والمتوكل على الله ، وأيضًا حدث والمعركة في أشدها أن توفى عبد الملك لكن خليفته المنصور كتم خبر وفاته حتى لا يؤثر ذلك على نفسية الجيش المغربي ، ولذا سميت هذه المعركة بـ "معركة الملوك الثلاثة". وقد بويع أبو العباس أحمد المنصور بالخلافة بعد موت عبد الملك ، أما المتوكل فقد أخذت جثته وسلخت وملئت تبنا وأمر أحمد المنصور بأن يطاف بها في المدن والقرى ليكون عبرة ولقب منذ ذلك الوقت بالمسلوخ.(٣١)

المغرب الأقصى في عهد أحمد المنصور الذهبي

كانت لمعركة "وادى المخازن" نتائج هامة على الصعيد الدولي والمحلي ، فقد ثبتت أقدام السعديين بشكل كبير في حكم المغرب ، بل إن نظرة الدول الأوروبية قد تغيرت كليةً للمغرب ، وفتحت هذه المعركة صفحة جديدة للعلاقات بين المغرب وأوروبا ، هذا فضلاً عن الضعف الشديد الذي حل بالبرتغال بعد مقتل ملكهم سبستيان حتى وصل الأمر إلى انهيارها تمامًا في الربع الأخير من القرن السادس عشر ودخولها تحت الحكم الاسباني سنة ١٥٨٠م.

وعلى الصعيد العثماني ؛ اقترح السلطان مراد الثالث عقد تحالف مغربي عثماني ضد الأسبان بعد احتوائهم للبرتغال ، وعرض على سلطان المغرب إمداده بأسطول عظيم يستعين به في إعادة فتح الأندلس ، لكن لم يتضح موقف أحمد المنصور تجاه العرض العثماني. وكان القائد العثماني "قلج علي" في ذلك الوقت يتحين الفرص لتحقيق حلمه القديم في إعادة الحكم الإسلامي للأندلس ، خاصةً بعد ثبات أقدام الدولة العثمانية في تونس ، وعدم وضوح موقف السلطان أحمد المنصور من التحالف العثماني ضد الأسبان.

هكذا صدرت الأوامر إلى قلج علي باشا بالتوجه إلى المغرب والسيطرة عليه لبدء العمل في استرداد الأندلس ، فوصل قلج على إلى الجزائر سنة ١٥٨١م ، بينما كان المنصور يرابط بقواته عند نهر تانسيفت مستعدًا لمواجهة العثمانيين ، حيث تقدم المنصور تجاه الحدود سادًا مداخل البلاد وثغورها ، وما لبث بعد ذلك أن وجه المنصور سفارة إلى استانبول مخبرًا السلطان العثماني بوصوله إلى شبه اتفاقًا عسكريا مع الملك الاسباني لمؤازرته ضد العثمانيين في مقابل تنازله عن مدينة العرائش وبعض الامتيازات الأخرى ، وأمام تطور الأحداث لم يجد السلطان العثماني بدًا من قبول الأمر الواقع والتراجع عن غزو المغرب.(٣٢)

أما على صعيد العلاقات الودية بين المغرب والدولة العثمانية ؛ فقد صفا الجو بين البلدين على أثر قبول السلطان مراد بالأمر الواقع وميله إلى سياسة المهادنة بينه وبين سلطان المغرب ، إذ أن السلطان أحمد المنصور لم ينس للسلطان مراد العثماني نجدته له ولأخيه أبي مروان عبد الملك ضد المتوكل على الله ، لذا لم ينس المنصور أثر بيعته في وادي المخازن أن يكتب للسلطان مراد العثماني بما أحرزه من نصر على جيوش البرتغال ، وقد وفدت له رسل السلطان مراد ومعهم الهدايا لتهنئته.(٣٣) وقد جاءت الرسائل السعدية إلى العثمانيين دليلاً على صفاء جو العلاقات المغربية — التركية في عهد المنصور الذهبي ، وفي بعض هذه الرسائل أدلة على استئناف الجهاد في المغرب ، مما قد يفهم منه أن المشاورات بين السعديين والعثمانيين كانت جارية لاسترداد الأندلس وتخليص المسلمين المعذبين فيها.(٣٤) فبعد موت السلطان مراد الثالث بعث أحمد المنصور برسالة إلى الصدر الأعظم سنان باشا ، يعزيه في موت السلطان ، ويهنئه بتولية أبنه محمد الثالث.(٣٥)

وقد ثار ابن القاضي أمير كوكو ببلاد القبائل مناهضًا العثمانيين كأسلافه ومادًا يديه للأسبان محتلي وهران ليساعدوه على خصومه حكام الجزائر ، فبعث هؤلاء للمنصور بكتاب مع الكخية يوسف ، يشكون إليه ذلك الأمير الخائن ويخبرونه باحتمال هجوم الأسطول الأسباني عليهم ، فرد عليه المنصور برسالة مطولة جاء فيها: (إن آنستم من جانب الكفرة - دمرهم الله- عمارة تنشئ أو أسطولاً يؤم ناحيتكم ، واحتجتم إلينا فنحن بحمد الله بأنفسنا وأموالنا وأجنادنا موجودون لنصرتكم على أتم أهبة واستعداد ، واحتفال لا يزال لنكاية الكفر بحول الله بالمرصاد ، وآذاننا صاغية لداعيكم ، وهبوب صوت مناديكم. ومتى ناديتم وافيناكم — بحول الله- بعساكرنا المظفرة بالله خيلا ونارا ، وأسودا للجهاد تزأر في ذات الله نهارا).(٣٦)

وقد كانت مثل هذه المراسلات التي استمرت أغلب سنوات حكم المنصور دليلاً أكيدًا على مثل هذه العلاقات الودية بين البلدين. ولقد استمرت هذه العلاقات الودية بين البلدين قي عهد المنصور الذهبي مما أسفر عنه المزيد من التقدم والازدهار للمغرب في عهده وعدم مصادمة العثمانيين عند حدوده ، بل توجه بعد ذلك للتوسع تلقاء السودان الغربي وإخضاع بعض ممالك الغرب الإفريقي ، فاحتل توات وتيكورارين ، ثم الممالك السودانية ومن أهمها مملكة لاسيقيين ، وكان هذا ما بين عامي ١٥٨٨ - ١٥٩١م ، وذلك بفضل جيوشه المسلحة بالأسلحة النارية ، والمزودة بالمدافع.

وقد أثرى توسع السعديين إلى السودان خزائن المنصور بالذهب والغنائم الكثيرة ، مما مكنه من انجاز مشاريعه العمرانية كقصر البديع ، والعسكرية والاقتصادية وغير ذلك والإنفاق عليها بسخاء[٣٧] ، فقويت المغرب في عهده وأصبحت إمبراطورية مرهوبة الجانب متينة الاقتصاد ، وقد لقب أحمد المنصور بالذهبي لبلوغ المغرب في عهده عصرها الذهبي من التوسع والرخاء الاقتصادي والاجتماعي.

خاتمة

لكن ما لبث المغرب أن تفكك من جديد بعد وفاة أحمد المنصور وأدى ذلك إلى سقوط دولتهم في الفترة ما بين ١٦٠٣- ١٦٥٩م ، نتيجة التناحر على السلطة بين أبناء المنصور مما أدى إلى انقسام المغرب في تلك الفترة إلى مملكة شمالية ومملكة جنوبية ، الأمر الذي هيأ الفرصة للأسبان من جديد لغزو موانئ المغرب وثغورها ، واستطاعوا بالفعل احتلال ميناء العرائش بالتواطؤ مع محمد الشيخ سنة ١٦١٠م ، ثم ميناء المعمورة سنة ١٦١٤م ، وكان للانجليز والهولنديين أطماع في احتلال مواقع أخرى ، ولم يتدخل العثمانيون في الشئون المغربية بشكل كبير بعد ذلك ، فقد كانت حروبهم المستمرة في القارة الأوروبية من جهة ، وبين الشيعة في إيران من جهة أخرى تعيقهم عن أي تفكير للسيطرة على المغرب الأقصى أو مناهضة حكامه.

الهوامش

(١) خالد فؤاد طحطح ، العلاقات المغربية العثمانية خلال القرن ١٦م ، مقال بمجلة الفسطاط التاريخية على الموقع الالكتروني (www.fustat.com) ، ص١.

(٢) شوقي عطا الله الجمل ، المغرب الكبير في العصر الحديث ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٧م ، ص ٥٣ ، نقلاً عن: أبو عبد الله بن محمد بن احمد الكانوشى العبدى ، آسفى وما عليها قديمًا وحديثًا ، ص ٨٢.

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٥ ، ٥٦.

(٤) المرجع السابق ، ص ٥٨.

(٥) المرجع السابق ، ص ٦٢ ، ٦٣.

(٦) السعديون: هم من أسرة عربية الأصل كما هو مؤكد لدى من أرخ لهم ، انتقلوا من ينبع بالحجاز إلى درعة بجنوب المغرب ، استوطنوا قرية (تاكمادرت) وذلك في المائة السادسة من الهجرة ، وكان الاعتقاد السائد لدى المغاربة أنهم من الأشراف ، لكن خصومهم من بقايا الوطاسيين والمرنيين وأنصارهم كانوا يطعنون في صحة نسبهم الشريف ، معتمدين في ذلك على البتر الذي لوحظ في عمود نسبهم كما ذكر ابن القاضي. وقد ظل السعديون حتى مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي يحيون في المغرب حياة بسيطة دينية وعلمية ، ولم يبرزوا على المسرح السياسي إلا حين اشتدت وطأة البرتغاليين على سكان الجنوب الغربي ، ولم يتدخل الوطاسيين لحمايتهم ، ومن هنا ظهروا كقادة لحركة تحرير ، لهذا التف حولهم الناس وبايعتهم القبائل. (أنظر إبراهيم شحاتة حسن ، أطوار العلاقات المغربية العثمانية ، الإسكندرية ١٩٨١م).

(٧) جلال يحيى ، المغرب العربي والاستعمار ، المكتبة الثقافية رقم ١٦٤ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١ نوفمبر ١٩٦٦ ، ص ١٦.

(٨) المرجع السابق ، ص ١٨.

(٩) جلال يحيى ، تاريخ المغرب الكبير منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر ، الجزء الثالث ، الدار القومية للطباعة والنشر عام ١٩٦٦م ، ص ٣٥.

(١٠) إبراهيم شحاته حسن ، وقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب - قراءة تاريخية عبر علاقات المغرب الدولية في القرن السادس عشر الميلادي ، دار الثقافة – الدار البيضاء ، الطبعة الأولى عام ١٩٧٩م ، ص ٧١.

(١١) المرجع السابق ، ص ٧٦.

(١٢) المرجع السابق ، جلال يحيى ، تاريخ المغرب الكبير ، ص٣٢ ، ٣٣.

(١٣) محمد مجى ، جولات تاريخية ، الجزء الثاني ، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر ، دار الغرب الإسلامي – بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٥م ، ص ٥٢٥.

(١٤) عبد الكريم كريم ، المغرب في عهد الدولة السعدية ، الدار البيضاء ١٩٧٧م ، ص ٨٠ ، ٨١.

(١٥) المرجع السابق ، ص ٨١.

(١٦) المرجع السابق ، ص ٢٠ ، ٢١.

(١٧) المرجع السابق ، إبراهيم شحاته حسن ، وقعة وادي المخازن الخ ، ص ٩٩: ص ١٠١.

(١٨) عبد الهادي التازى ، التاريخ الدبلوماسي للمغرب منذ أقدم العصور ، المجلد الثامن ، الرباط ١٩٨٧م ، ص ١٧ : ٢١.

(١٩) محمد رزوق ، دراسات في تاريخ المغرب ، أفريقيا الشرق ، ص٨٩.

(٢٠) المرجع السابق ، ص ٩١.

(٢١) المرجع السابق ، شوقي عطا الله الجمل ، المغرب العربي الكبير ، ص ١٠٠.

(٢٢) المرجع السابق ، محمد رزوق ، دراسات في تاريخ المغرب ، ص ٩٤.

(٢٣) المرجع السابق ، شوقي عطا الله الجمل ، المغرب العربي الكبير ، ص ١٧٤ ، ١٧٥.

(٢٤) المرجع السابق ، إبراهيم شحاته حسن ، وقعة وادي المخازن ، ص ١٧٢.

(٢٥) المرجع السابق ، ص ، ١٧٥ ، ١٧٦.

(٢٦) المرجع السابق ، ١٧٢.

(٢٧) المرجع السابق ، شوقي عطا الله الجمل ، المغرب العربي الكبير ، ص ١٧٥.

(٢٨) المرجع السابق ، إبراهيم شحاته حسن ، وقعة وادي المخازن ، ص ١٧٦.

(٢٩) المرجع السابق ، شوقي عطا الله الجمل ، المغرب العربي الكبير ، ص١٧٦.

(٣٠) المرجع السابق ، إبراهيم شحاته حسن ، وقعة وادي المخازن ، ص ١٨٤ ، ١٨٥.

(٣١) المرجع السابق ، شوقي عطا الله الجمل ، المغرب العربي الكبير ، ص ١٧٥: ١٨٥.

(٣٢) المرجع السابق ، عبد الكريم كريم ، المغرب في عهد الدولة السعدية ، ص ١١٢.

(٣٣) المرجع السابق ، شوقي عطا الله الجمل ، المغرب العربي الكبير ، ص ١٨٤.

(٣٤) المرجع السابق ، محمد مجى ، جولات تاريخية ، ص ٥٣٢.

(٣٥) انظر نص الرسالة في المرجع السابق ، ص ٥٣٢.

(٣٦) المرجع السابق ، ص ٥٣٢.

(٣٧) إبراهيم شاته حسن ، أطوار العلاقات المغربية العثمانية ، الإسكندرية ، ١٩٨١.

دورية إلكترونية محكمة. ربع سنوية ISSN: 2090 – 0449